صوت الجبل *

[مهداة الى الأستاذ الزيات]

للأستاذ معروف الأرناءوط

« . . . لقد قال لها إن الجبل ينادينى يا «سافو» ... ثم رفع صوته قائلا : إن الله قريب منى وإنى لأراه فى هذا النور الذى يطفو على «سيناء» ! وفى هذا الفتون الذى يراق على بادية التيه ! »

قال « كريستيا » « لسافو » وقد اطّرح الدير فى الليلة الجوناء وهبط « وادى العربة » تاركا وراءه قنن جبل « حور » : ناشدتك الله يا أخية أن تسمعينى شيئاً من حوار «أوديب» حينما اشتملت عليه جبال وطنه ، فانه ليروق لى وقد شابهت هجرتى هجرته ومائلت شجونى شجونه ، وحاكت ليالىّ لياليه ، أن ستمع لجرسه الشجىّ فى هذا الوادى المصحر ... إنك لتتذكرين خروج هذا الملك فى ذات ليلة الى جبال « كولون » ومعه ابنته « أنتيغون » . فلما أظلته السحب وأرزمت السماء وقعقعت تهافت على ابنته فى رفق وحب وسألها أن تذكر له اسم الأرض التى وطئها وقال لها إنه يحب أن يدفن آلامه ومتاعبه وذكرياته فى المنفى ، فطفقت «أنتيغون» تتحدث إليه عن وطنه الجديد ، فرق وسكن ولطفت أحاديثها حزنه . نعم حدثينى يا « سافو » عن « أوديب » وعن « أنتيغون » فانما أنا ذلك التعس « أوديب » ، وأنت « أنتيغون » رفيقته فى أرض المنفى ، ولكن سافو كانت تفكر فى « فروه ابن عمرو وفى المعركة التى نهد اليها برجال حصمت نصفهم الحرب وما يستطيع الذين نجوا من غضب «قيصر» أن يستبقوا الحياة الى ليال فلقد تناورهم الرماح والنبال والسيوف من كل ناحية وعمنهم هذا الجيش الكثيف الرابض عند منافذ الأودية ومسارب الطرق من الافلات . فتضيق بهم « سلع » ويضنيهم الحصار والطوى والبرد وانقطاع المدد :

لقد كانت تفكر فى هذا كله ساعة أرادها الشاعر المثال على قراءة قصة « أوديب » الملك ، فلما لم تسمعه صوتها تغنى بشعر « سفوكليس » وحسب نفسه وهو يطأ الجبل أنه ذلك التعس « أوديب » فقال بصوت شجى يشبه الرثاء :

أوديب

« أنتيغون ، يا ابنة ذلك الأعمى الشيخ ، ناشدتك الله إلا ما حسرت لى عن هذا البلد الذى بلغنا نواحيه ، وأىّ شعب هذا الذى نزلنا منازله ، ومن هم جيرتنا فى البلد التازح ؟ فى هذا اليوم يستجدى « أوديب » الهائم السّادر الناس ، فيعطيه هؤلاء عطاء حقيراً ، بل لقد طلبت قليلاً وأعطيت يسيراً ، وفى هذا غناء لى وكفاء ، فقد علمتنى الآلام والأهوال والمحن وتعاقب السنين ونفسى الصابرة : علمنى كل أولئك الاستسلام والرضى ، فهلمى يا بنية ، هلمى إلى فلأن نمت مقعداً فى مكان رجس أو فى غاب مقدس فقل بى عنده وانزلى بى فى أديمه ، ثم لا يضيرنى ولا يضيرك أن نمضى إلى الناس فنسألهم الطريق وفى أىّ موضع منه نحن ؟ فاننا غرباء عن الديار ومن حقنا أن نسأل الغادى والرائح »

ولكن سافو لم تفعل ما فعلته « أنتيغون » ، ولم تدلّه على المكان الذى نزل فيه فاتنى هامساً بمثل ما همست به « أنتيغون » فى أذنى أيها البائس :

---

* الفصل الثالث والثلاثون من الرواية الخالدة « عمر بن الخطاب »

أيها الزملاء ! كلمة أخيرة

إن تقيكم العظيم المضطلع بشتى شؤون الدولة يكاد يقول مثل « الملك الشمس » « أنا الدولة » فأهيبوا به أن يذكرنا . . . . وعند ما يصدر القانون ، وتتقرر حصانة المحامى فى الجلسات ، يومئذ تلمسون بأصابعكم ما قاله ماكس باتو من أن المحامى ملك ، بل وتضيفون إليه أيضاً أن المحامى ملك

عبد الحليم الجندى

مراجع البحث : مؤلفات هنرى روبير L'avocat; Les Gands Procés de L'histoire; Un Avocat de 1830; Souvenirs du Palais de lPa Ville. Modèls Francais IV, Edmond Procés

Anthologie des Avocats Français contemporains : Fernan Paiyan Leurs Maniere. Bernard Glasset

مؤلفا الأستاذ الجداوى (الرافعة ومرافعات) Can dide 21 mai 1936

محاضرة لويس بارتو ومحاضرة شارل شهى فى Uuiversite des Anneles 1937

المنشورتان فى جريدة Jaurnal de L'universite سنة ١٩١١ des Annalis

أنتيغون

أوديب ! أيها الوالد التعس ، يا من أضناه الألم ، وأذبله الداء ! ليخيل إليّ أن سور مدينة قد ارتسم فى الأفق أمام عيوننا ، وهذه الارض التى نزل فيها لا يزال عليها عبقٌ من قداسة ونقاسة ، يدلك على ذلك هذا الغار المتشابك وهذه الأدواح الظليلة ، وهذه الينابيع الرقراقة ، ثم هذه البلابل التى تغنى فى الغاب الوارف . اطو يا أبتاه قدميك فلعلك تستطيع الجلوس على هذا الصخر الواعر ، فلقد طال شرودك ، وامتدت المسافات بك ، وانت ذلك الشيخ الذى لا يستطيع إمعاناً فى صعود وفى هبوط

أوديب

على ، على ، دعينى أجلس ، واسهرى على الأعمى العاثر الجدّ (١)

* * *

وراح « كريستيا » جالساً على الصخر وقلبه يميد وجبينه يتندّى عرقاً وعيناه ترعشان فى كلّ ناحيةٍ من نواحى هذا الأفق المديد الفسيح ؛ وجلست « سافو » بجواره وفى نفسها أثر من جراح نفسه ، ثم لم تلبث أن رقّت له رقّة ألمية ، وأخذت يده وقالت له : أتدرى أين مسكنك ؟ قال لا ، قالت فى « وادى العربة » هذا الذى يفصل « البحر الميت » عن « خليج أيلة »

وكان قد أمضى بعض ليله على روابى جبل حور ، فلما نزل فرع الوادى لم يشعر بالمسافات الطويلة التى خلّفها وراءه ولم يعطن إلى تيه الذى مزّقته الصخور والادغال المتشابكة ولم ينتبه إلى الاحياء الذى تعاور « سافو » وكذلك ما كان يهمه أن يحتويه المكان القارع ، فلقد جلس على الصخر فى سكينةٍ ودعة ، وجعل يقلب عينيه فى الجبال التى تحيط بالسهل من الشرق إلى الغرب وقد خلست على الوادى ظلاً شاحباً فبدا عميقاً كأنه هوّة من هوّات الجحيم .

وكان من أحبّ أمانيه ان يتعرّف إلى طريق البحر الميت والأردنّ ليلحق بحستاه « بنيامينا » ويقضى ما تبقى من أيامه فى الأرض التى نبت عنها الشهرة واطّرحها المجد فما يرد نظراته فى جنوب الوادى حتى يكرهه ويمله وحتى يعاف أن يحدّق اليه ، وذلك لأنّ فى جنوب وادى العربة طريقاً تدفع إلى خليج أيلة ، إلى ذلك البحر الذى لا تفارقه سفن « هرقليوس » وفلكه ثم يحلّق وهمه فى طريق الشمال فتتمثل له الأرض منحدرها هابطة إلى البحر الميت وإلى الأردن فيرق ويتشاجى ويذكر « بنيامينا » النازلة شواطىء النهر المقدس ثم يتلفت إلى « سافو » ليسألها أن ترافقه فترى إليها نائمة حالمة فيمنعه حبه لها وبره بها أن يبتعثها على استفاقة تخرجها من أحلامها الهادئة ثم يعود فيستعرض وادى « العربة » من مكانه على الصخر ، فاذا امتدت نظراته من الشمال إلى الشرق استبحر المكان أمامه وعرض له أخدود راعب يتساقط الماء على جوانبه من قلل جبل الشراة فيزعجه ويؤلمه أن ينبطح السيل فى مفاجر الوادى ومرافضه فيضع يده على رأس « سافو » النائمة الحالمة فتستفيق وتنهض وتدير لحاظها فى تلك الأرجاء الفيحاء ثم لا تلبث أن تدرك مأساة حياتها ، ويزيدها غماً ويأساً أن يلبس هذه المأساة هذا الحزن الذى يغشى جروف « العربة » وفلوجه ومسايله ومنحدراته ، ولما أرادها « كريستيا » على اصطحابه فى طريق البحر الميت لم تجد معدى عن مجاراته ومسايرته ، فوقفت على الصخر ونظرت إلى الجنوب فاذا الطريق قد فرقت فروقاً عظيما حتى لتوشك أن تنتهى عند خليج « أيلة » فأخافها أن تمتد الطريق وتفيح ، ثم نظرت كرّةً أخرى إلى الشمال فاذا الوادى يهبط إلى خيف لين رقيق ثم هو يزلق إلى الغور

وقد كان عسيراً على الأخوين وقد برّح بهما السير فى الأخاديد والأغوار والهوّات والأودية أن يستأنفا الرحلة فى الأرض البُراح ؛ ومع هذا كله ما كانت « سافو » تستطيع أن تردّه عن منازعه ، فلما جاز الأخوان بعض الطريق وأوشك وادى « العربة » أن يتقلّص وينيب ترقرقت خيالة « سلع » فى عينىْ « سافو » فذكرت زوجها الغطريف ، وابتعثها التذكار على الوفاء له فقالت لأخيها :

— إنه ليجمل بك أن تدأب فى سيرك حتى يطلع عليك « الأردنّ » أما أنا فلقد نذرت رجوعاً إلى « سلع » حيث ألحق بزوجى الذى لم يترك سلاحه بعد !

(١) أوديب فى كولون الفصل الأول المشهد الأول

وكانت لهجتها صريحة وصادقة ، فلم يستطع « كريستيا » وهو الذى يعرف حبها لزوجها أن يعصيَ لها أمراً ، فلحق بها إلى وادى « العربة » وكان لا ندحة لها عن الرجوع معاً الى جبل « حور » ثم ينحدران الى الدير ويلحقان « بسلع » !

وبعد طوافٍ عنيفٍ فى الأرض الغطشاء ، فرع الشقيقان فى جبل « حور » فنزلا بضلعه الشرقية وقدر لهما وهما على المرتفع الشاهق المطلّ على الطريق ، أن يريا إلى وادى « العربة » الجديد وإلى صحراء « التيه » فوقف « كريستيا » خاشعاً أمام هذا المنظر الرائع حتى لقد جنب شعوره أن يحلّق فى عالمٍ آخر . وكيف يستطيع إحساسه الثائر أن يحلّق فى عالمٍ آخر ، وهذه الأرض المقدسة من « سيناء » ترعش فى نظراته وتطفو على جوارحه وتلهب ذكاءه وتذكره بماضى هذه البطحاء التى استمعت إلى صوت الله وهو يتحدث إلى نبيّ !

خيّل إلى « كريستيا » وقد وطئ كرة أخرى حضيض الجبل اللهم أن الدنيا طويت له واجتمعت عنده فأنّى تلفّت تمثلت له قلل جبل الشراة الرفيعة يغمرها موجٌ دافق من رواء المساء وبهاء السماء ، وأنّى استقر أخذته المشاهد الموحشة وعليها من الروعة والجلال والتذكارات ما ليس يجده الشعر المهذّب فى خيال رواته وقائليه ، بل لم يكن يستطيع وقد عرَضتْ له « سيناء » وصحراء « التيه » وقيعان وادى « العربة » وجروفه أن ينزع من صدره صورة هذه الدنيا العابقة بعطر النبوّة والوحى

ولما أوشك أن يرق القنة التى عليها قبر « هارون » أرخى الشفق عليه ظلاله الساجية فاستراح بجوار القبر المقدس ، ووقفت « سافو » حياله ، فما فاتها وقد لصقت به أن تسمع صليل جوفه ، وأن ترى إلى عينيه وقد غابتا فى عقيق « سيناء » !

فى تلك الأثناء حفا البرق فى الصحارى ، وامتدت شعله وخيوطه على حواشى جبل « سيناء » حتى ضوّأت قلله وقننه ، وكشفت ربوده ومصاده وشعافه ، وحسرت عن جروفه وفلوجه وغيرانه ، ثم أضاء البرق ولمع ، ثم أضاء ولمع ، وتلت ذلك أصوات تشبه الهزيم ، وترقرقت ألوان الشفق الحمراء فى كل ناحية حتى أصبح الأفق وردة كالدهان ، فخيّل إلى الشاعر أن هذه الأطواد التى تجاوره وتصاقبه لا تريده على فراقها ، وإنما هى تريده على أن يستشرق بهذا القبس الشاعل الذى تراءى لموسى النبيّ فى البادية الغلفاء ، فلصق بمكانه وقال « لسافو » : انه يكره الرجوع إلى « سلع » ، وإن من أحبّ المنى إلى نفسه أن يموت وعيناه تنظران إلى أضواء هذا القبس الذى ترنى به قلل « سيناء » الرفيعة إلى الصحارى والبوادى

وما زال البرق يضيء ويلمع على روابى « سيناء » ، وما زالت الأصوات الخفيّة تتغاير فى الأفق على مدى بعيد ، وما زالت ألوان الشفق الحمراء تتفجّر هابطة صاعدة ، وريح النعناع تفعم الحياشيم حتى أحسّ « كريستيا » قداسة هذه الأرض ، فخلع نعليه وركع بجوار قبر « هارون » النبيّ مصليّاً وداعياً ، منتحباً وباكياً !

لقد قال لها إنّ الجبل يناديني يا « سافو » ، وكلّ جارحة من جوارحى تقول لى لا يجمل بك أيها الشاعر أن تغمض عينيك على السحب الصادرة فى « سلع » ! ثم رفع صوته وانثنى قائلاً . إنّ الله قريب منّى ، وإنى لأراه فى هذا النور الذى يطفو على « سيناء » ، وفى هذا الفتون الذى يراقُ على بادية « التيه » ، بل إنى لأسمع صوته فى قسطلة الماء عند سفوح جبل « حور » . لم يعد فى هذه الحياة التى أخذتنى خطوبها وكوارثها ما أخافه ، وما أحرص عليه ، فالمجد الذى جنبنى طيفه فى ميدان « سلع » حيث يقتتل الناس إما زلفى « لقيصر » ، وإما زلفى « لفروة ابن عمرو » ، قد تمثل لى عند هذه القنن الرفيعة بألوانه وأنواره وطيوبه ونغماته ، وروحه الساكن الوادع ، وشبحه المضيء ، وجرسه العذب ؛ إنه ليخلع على جسمى الذى قرسه برد المشيّة دفء نفسه لأموت محترقاً فى سناه ، فذلك أمثل من موت يزجى ظله الصادر عند رواميس « سلع » ! ولأن تحتوينى هذه الأرض المقدسة أفضل من أن تحتوينى هذه الأرض التى لا تعرف القداسة !

وعبثاً كانت تصدّه عن ميوله ومطامعه ، فلقد أحبّ أن يموت على جبل « حور » كما مات موسى النبيّ ، وكما مات هارون النبى ، ثم هو إلى ذلك شاعر يحب فنه وما يليق بالشاعر أن يموت فى الأرض التى لا تتصدع فيها السحب والبروق ، ولا يزهر على حواشيها الآس والنعناع والورد

وإنهما ليتحاوران ويتساجلان فى غير جدوى ولا طائل ، إذ حملت أعراف الليلة الساجية ترجيع الأبواق ووادى « سلع » فرجفا معاً . وقالت « سافو » : إنها أبواق « فروة » يا « كريستيا » ، وإنه المنتصر على « هراقليوس » . ناشدتك الله أن تمضى معى أو تبقى وحدك على هذه القنن

ورأى السكين وقد أذكره صوت البوق حاضره أن يلحق بها ، ولكنه لم يكد يبرح مكانه حتى حفت البروق وتوامضت على مدى واسع فبانت له كرة أخرى جبال « سيناء » وصحراء « التيه » فألاعته الأضواء القامرة وأحرقت أحلامه ، فوقر فى ذهنه أن يبقى فى جبل « حور » طوال ليله فلا يفارقه ولا يخفره ولا يمل الطواف بشعافه ورعانه ، ولا يسأم الهبوط إلى حضيضه وسفحه ، نعم إنه مريض وإنه مُدْنَف وإنه ذلك المنفى الذى يقبس أغانيه من نفس عامرة بالألم زاخرة بالشجن ، ولكنه على مرضه ودنفه كان يلذ أعراف هذه الأماكن المقدسة ويرى فيها العافية التى يشتاقها ويحب أن يغنى أغانيه فى هذه الأصلاد بصوت الشاعر الملهم لتسمعها روابى « سيناء » كما سمعت صوت النبى الملهم ؛ وكان يشعر بقرب النهاية فتنازعه شعوره الى السكوت فى هذه الأرض حتى يأخذ الله وديعته فيرقد رقاده الأبدى فى شعفة تطل على « الأردن » وعلى « حرمون » وعلى « بيت القدس » !

لقد باح لها بخواطره ، وقال لها إن فى « سلع » مكاناً للبطولة الرائعة ، وليست تعرف فيه ذلك البطل القارع فمن حقه أن يجد مكانه على الرُّبى الشم حيث تترقرق أضواء السماء ، وحيث ذكاء الشاعر يبحث عن السنى والسناء ! فلما سمعت قوله لم تأنف أن تطرحه فى الجبل فتولت عنه وتدفقت فى سيرها تحت ضياء الكواكب ، وما زالت تمعن فى الهبوط حتى استقبلت السفح ووارتها عن عينىّ « كريستيا » فجاجٌ وشعاب

وقلب عينيه فى هذه الرجاء الفيحاء فاذا هو وحده على الشعفة السامقة يحيط به عالم تطفو على حواشيه أشباح وأرواح ، وتجرى فى سمائه كواكب متقاربة متباعدة ، وتنوح على أطرافه وجنباته ريح ذات هدير وصليل ، وتخرج من جروفه وغيرانه أصوات كأنها عزيف الجن ، يضاف الى هذه المشاهد الراعبة قبسٌ يَخْطَفُ على سيناء فى أقصى الأفق !

لقد روعته العزلة فتمايد وتمايل ، وخيل إليه أن بهذه النجوم الدانية من القلل والقنن عيوناً تنظر إليه ، ففتر فمه وبرق بصره ، ثم تساقطت الشهب فى الأبعاد النائية كأنها الحريق الشامل . فغشيته ذهلة أليمة ، وخيل اليه أن السماء قد ألقت اليه بنارها ودخانها فجفا مكانه على القبر وطفق ينادى : « سافو » ! لكِ الله يا أختيَ أينَ أنتِ ؟

وهام على وجهه فما ينحدر من رابية حتى يغيب فى أخدود ضيق ، فاذا حسر الأخدود عنه أمسى فى غارٍ مظلم ، فاذا أوغل فى ظلمة الغار تساقط الماء على ثوبه من صدوعٍ فى الصخر النابى فتندّى وَقَرَسَهُ البرد ، ثم يخرج من الغار فاذا هو بعد طوفة جاهدة عند سفح الجبل وإذا « سافو » لا تزال على السفح كأنها كانت تتوقع أن تضجره العزلة وتخيفه الوحدة فيأنس الى اللحاق بها

ورأت « سافو » اليه تحت ضياء العشية فنادته بصوتها الرقيق الناعم : إنى أخاف عليك برد الجبال فهلم فانيمنى الى « سلع » فلعلك تجد عندها ذلك القبس الذى يضرم شعورك

وكان الانحدار الى « البتراء » سائغاً ولذيذاً فأحوتهما معاً طريق قديمة نقرت فى الجلامد فأوغلا فيها ، وأظلتهما حجارتها ، الناعمة الملساء ، وتراءت لهما فى اليمين وفى الشمال أسوار حمراء بلون العقيق ، ولكنها أسوار عظيمة لم تتحيفها غلظة ولم تتخللها قرون وشعف ، فجازا الطريق الى الوادى وطلعت عليهما غيران ضيقة ولكنها قصيرة ، ثم إذا هما يخرجان الى طريق تدفع الى دغل تكاثفت على حضيضه النباتات فسلخا فى اجتيازها ساعتين ثم طلعت عليهما قبور « سلع » الأولى

ولم تكن سلع قد أطلت عليهما بعد ، فلقد وارتها حوائط من الحجر الصلد فارتدّا الى ناحية الشمال وفزعا الى الجانب المظلم من صخور لا تضيئها أنوار المساء ، ورأيا الى القبور المحفورة وقد تراكب بعضها فوق بعض وفتحت أشداقها وحسرت عن ثقوبها فأخذتهما أشعة خفيفة تزلق إليهما من الجبال ، وسحرهما إطلال هذا المشهد بعد تلك السياحة الكامدة فأحسا الحياة وطفقا يتأملان معاً فى هذه المدافن المعلّقة بين السماء والغبراء ، وسرّهما أن يتعرفا الديار والرسوم والأطلال ، ولذهما أن خيالة « سلع »

عادت تطوف بصدريهما الراعشين

فى أعماق هذا الجرف الذى تحميه من كل نواحيه أطواد وأصلاد تنام مدينة « سلع » عن كثب من أطلالها وقصورها وخرائبها وينبوعها الحرّ !

جلس « كريستيا » على عمود رخامى كان جاثماً على الأرض ، فجلست « سافو » حياله وطفقا معاً ينظران فى ذهلة إلى هذه الروائع الفواتن يحفهما صمت وينشاها سكون ، ويخترق آذانهما هدير الماء ودفه على الأصنام البتداعية والعمد المنهارة فى ظلّ ظليل من أشجار الغار الواشجة

لم يجرُؤ « كريستيا » على الهمس فلقد أمالته الصور البارعة إلى غرقٍ وأنسته ذلك الألم الذى تحيفه خلال طوافه بقنن جبل « حور » ونزوله إلى حدور وادى « العربة » بل لقد ألهته قسطلة الماء فى الصعيد المهجور عن أولئك الناس الذين نفروا إلى قتال « قيصر » تحت لواء « فروة بن عمرو » فما عادت صورهم تمرّ بصدره ، وكذلك كان شأنُ « سافو » فلقد غرقت مثل غرقه وسبحت مثل سبحه ، وأنستها هذه الظلال الندية الرخيّة تلك الثورة التى عصفت بنفسها الرقيقة فى ذلك الوادى الذى تتلاق عند قيعانه وكثبانه طرق « أيلة » والبحر الراعب ، فأية فتنة هذه التى هدمت الشياع الملتاعين وحملت إلى النفوس الضارعة بعض العزاء الذى تحبه وتأنس إليه

هذه الرائعة ما كانت تعدو ماضىَ « سلع » فى هذه الدمن التى يغنّيها الماء الدافق الهادر غناءَه الشجىّ من أبعد عصور التاريخ لا تستطيع النفوس الكامدة أن تستبق حزنها إلى الأبد ، إذ لا مدى لها عن استمراء الوحدة والاصغاء إلى حديث حياةٍ منقرضة وإذ هى محمولة على الشرود فى جلال الموت وفى روعة السماء

معروف الارناؤوط
عضو المجمع العلمى العربى

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام خيال ولا أصل له)

— ٦ —

كذبت على الله وعلى نفسى حين زعمت أنى معجب بالسمراء وأنى لا أحب الثوب الأزرق .. لا والله .. فما أبالى السمراء ولا اعجاب لى بها . وكل ما فى الأمر أنى رأيتها كثيرة المرح فراقنى أن تتلقى الحياة هاشة باشة ، وأن تضحك للدنيا ، ولكن هذا قد يكون عن خفة لا عن فلسفة ، وأنا مفطور على الجد ، ولهذا سهل أن أتعود الاحتشام ، ولكن وطأة الحياة ثقلت على كاهل صبرى ، فأنا لا أزال ألتمس التسرية والترفيه بما يدخل فى طوق من الوسائل ، ومن هنا هذا التناقض الذى يراه الناس فى طباعى . ولا تناقض هناك فيما أعلم ، وإنى لكما كنت طول عمرى ، وانما اختلفت المظاهر ، وأولاى معقودة بأخراى ، ولقد كنت فى صباى يائساً من الخير والسعادة فى هذه الحياة ، وأنا الآن أكفر بهما ، ولكنى كنت فى حداثتى يحزننى عجزى عن الاطمئنان إلى الخير فأكتئب وأتجهم وأروح أعتب نفسى وأقطع قلبى حسرة ، وأغرانى هذا بالزهادة ونشدان الراحة — على الأقل — بتوطين النفس على اليأس ورياضتها على السكون اليه ؛ وكنت أقول لنفسى جادا إنى تهالكت فما أفدت إلا الحرمان وإلا الظمأ والالتياح ، وإنى طلبت اللذات فما وجدت فيها لماقل غناء . . فلعل الزهادة تحسم داء لم أجد فى الطلب شفاء منه . ولكنى ما لبثت أن وجدت أن رفض الحياة يزيد المرء إحباطاً ، وأن الزهد ليس منجى ، وأن النفس تحسر به طيبها ورضاها ، وأن الذى لا يمد يده يجنى ويقطف لا يحق له أن يزعم أنه حرم الثمار التى يراها على أفنان الشجرة ، وقد لا يفوز الطالب الساعى بكل ما يبغى ، ولكنه لا شك خليق أن يظفر بكثير مما هو دونه ، فاذا فاتتك الغاية القصوى فقد لا يفوتك ما دونها من المتع ، فالطلب أولى ، والسعى أوجب ، لأن الطلب والسعى